كتب مشهد وفاته .. مبتسماً

إيناس عبد الله*

مـن أصعـب اللحظـات، تلـك التـي أكتـب فيهـا خـبر رحيـل الكاتـب الكبـير محفـوظ عبـد الرحمـن، هـذا الرجـل الـذي تعاملـت معـه عـن قـرب، في إطـار الصداقـة والعمـل، وشـعرت بفخـر وأنـا أجلس أمامـه، أمنـح أذني لـه بـكل إنصـات، وهـو يتحـدث عـن الفـن والحيـاة، عـن الدرامـا ومسـتقبلها، عـن أعمالـه وأعـمال غـيره مـن الكتـاب الكبـار والصغـار، وهـو يتحـدث عـن المعـارك التـي خاضهـا، عـن الصعوبـات التـي واجههـا، عـن النجاحـات التـي حققهـا، عـن المكانـة التـي وصـل إليهـا وهـو مسـتند عـلي خـبرة طويلـة مصقولـة بثقافتـه ودراسـته وبحثـه، فلقـد كان وسـيظل قامـة وقيمـة كبـيرة.

ورغـم أننـا جميعـا نؤمـن بالمـوت، ونـدرك أن تلـك اللحظـة آتيـة لا محالـة، لكـن تـزداد مهمتـي صعوبـة وأنـا أكتـب خـبر رحيـل كاتبنـا الكبـير، وهـو الـذي خصنـي بالحديـث معـي عـن هـذه اللحظـة

---

* كاتبـة صحفيـة مصريـة ، صاحبـة الحـوار الأشـهر مـع محفـوظ عبـد الرحمـن، والذي نـال جائـزة الإبـداع الصحفـي. نـشر بجريـدة الـشروق، العـدد ٣١٢٣- ٢١أغسـطس ٢٠١٧.

قبل أكثر من عامين، في حوار نلت عنه جائزة التفوق الصحفي، حيث فاجأني برسمه لمشهد وفاته كما يتخيله، ويتوقعه، ولم يتقبل انزعاجي من الخوض في هذا الموضوع ، وقال لي: « أنا من الذين يعتقدون أن أجمل لحظة في الحياة هي الموت، وهذا ليس تشاؤما بل أشعر أنني بذلك في قمة التفاؤل». الغريب أنه لم يكن يتحدث بنبرة ، أو قلق، أو بشرود، ولكنه كان مبتسما، وكان يتحدث عن هذه اللحظة بشغف، وقال: «أشعر أنني عشت كثيرا، واستطرد ضاحكا: «ولم يكن لديّ رغبة في هذا حقيقة الأمر»، ثم أكمل: « مع كبر سني، تعرضت لحالات مرضية صعبة لا يعرفها أحد، فهناك من يظن أنني أعاني مرضا في الأعصاب، ولكني أجريت سلسلة من العمليات الجراحية ليس لها علاقة بالأعصاب، وأذكر أنه أثناء وجودي بغرفة العمليات في مرة من المرات، تركوني بعض الوقت وحدي ففكرت في رواية، وأنا دائم التفكير في الكتابة، ولدي أكثر من ٢٠ فكرة، ولم أخش لحظة الموت، بل فكرت في طريقة استقبال هذه اللحظة، ليس من باب التشاؤم، ولكن من باب تخيل هذه اللحظة المتوقعة بين وقت وآخر.

محفوظ عبد الرحمن، أكد أن أصعب اللحظات التي مر بها في حياته، تلك التي تلقي فيها خبر وفاة صديق له، وقال: «رغم أن فكرة الموت لا تخيفني، لكنني أخاف أن أفقد الناس،

وأصعب شيئ في حياتي ، حينما أتلقي خبر وفاة أحد المقربين لي، وأشعر بفجيعة كبيرة، وفكرة خسارة أحدهم، شيئ صعب علي نفسي، لكن أن أتعرض نفسي للأمر ذاته، فهذا لا يخيفني ولا يقلقني أبدا».شعرت أنني كنت قاسية حينما سألته عن كيفية انتظاره للحظة الموت وتصوره له، وعما إذا ترك وصية أم لا ، فبادرت بالإعتذار له علي الفور، وطلبت ألا يجيب عن السؤال إذا لم تكن لديه الرغبة، ولكنه قال لي جملته الشهيرة التي كررها لي مع أي سؤال أشعرأنه قد يسبب له حرجا أو ضيقا: «إسألي كيفما شئت»، ثم أجاب: « لم أكتب أي وصية؛فليس لديّ أموال أورثها لأبنائي، فأنا رجل ولدت وكبرت وعشت وسأموت وأنا منتم إلي الطبقة المتوسطة، ولكن هناك أشياء طلبتها من أسرتي، منها عدم إقامة سرادق عزاء لي، لأنني لا أود أن تكون لحظة وداعي مسألة تقليدية، أو أن أتسبب في إجهاد الناس، لكن أسرتي رفضت هذا الطلب تماما».لم أستغرب من طلبه بعدم إقامة سرادق عزاء له؛ فلقد كان دائم الحرص علي الناس، وعدم إجهادهم، والتسبب في أي ضيق لهم، وأذكر حينما أقيمت له ندوة تكريم ضمن فاعليات معرض الكتاب، شهد هذا اليوم رياحا خماسينية صعبة، كما تزامن اليوم مع مغادرة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين لمصر، وإغلاق بعض الطرق، أدت إلي حالة ازدحام مروري غاية في الصعوبة، وهنا أشفق محفوظ عبد الرحمن

عـلي أصدقائـه ومحبيـه الذيـن انهالـوا عليـه بالتليفونـات يؤكـدون حضورهـم، فطلـب مـن أسرتـه أن تقـول إنـه لـن يذهـب للنـدوة بسـبب سـوء الأحـوال الجويـة حتـي لا يرهقهـم، ولكـن أصدقـاءه ومحبيـه لم يصدقـوا الـكلام؛ فمحفـوظ عبـد الرحمـن، لـن يخـل بوعـده الـذي منحـه للقائمـين عـلي النـدوة، ولـن يخيـب ظـن جمهـوره، مهـما كان سـوء الجـو، وتوقفـت الحركـة المروريـة، وذهـب محفـوظ للنـدوة ليجدهـا مكتظـة بالجمهـور والأصدقـاء، وبـدأ المنظمـون يسـتعيرون «الكـراسي الشـاغرة» مـن القاعـات المجـاورة، في محاولـة لاسـتيعاب هـذا العـدد الكبـير، التـي لم تكـف في كل الأحـوال، وشـارك كثـيرون في النـدوة – ومنهـم أنـا- وقوفا.وهنـا، اندهـش محفـوظ عبـد الرحمـن كثـيرا وقـال لي متأثـرا:» لقـد شـعرت بخجـل شـديد وأنـا أشـاهد هـذا الحشـد الـذي جـاء ليحـضر نـدوة تكريمـي رغـم كل الظـروف الصعبـة التـي شـهدها هـذا اليـوم، وشـعرت بحـب النـاس لي ومكانتـي في قلوبهـم».

وبعـد نـشر الحـوار، تلقيـت مكالمـة مـن كاتبنـا الكبـير، قـال لي إنـه شـعر بنـدم حينـما تحـدث عـن لحظـة وفاتـه، ذلـك أنـه بعـد نـشر الحـوار، تلقـي كـما هائـلا مـن الاتصـالات مـن الأهـل والأقـارب والأصدقـاء في مـصر وخارجهـا، وكلهـم متألمـون مـن كلامـه، يعاتبونـه عن تفكـيره في المـوت، وقالإنـه لم يكـن يتوقـع أن يتسـبب في إزعاجهـم، فلـم يكـن يريـد أن يشـاهد نظـرات الحـزن في عيونهـم بهـذا الشـكل،

وقال لي: «يبدو أن خبر رحيلي سيسبب صدمة كبيرة لكل المقربين». انزعجت وقلت له: « أطال الله في عمرك، فخبر رحيلك سيسبب صدمة لكل عشاق فنك في مصر وخارجها». فعاد لضحكته قائلا: «الموت قادم لا محالة».لتأتي تلك اللحظة التي كان ينتظرها، وتحدث الصدمة لكل جمهوره وعشاقه، رحم الله فقيد مصر الغالي، صاحب جائزة»نجيب محفوظ في الدراما» وصاحب جائزة الدولة التشجيعية، والفائز بالعديد من الأوسمة والنياشين، الفائز بمحبة وتقدير واحترام الناس.

obeikan.com

obeikan.com